الأنسنات

للإمام العارف بالله

سيدي سلامة الراضي

مؤسس الطريقة الحامدية الشاذلية

CamScanner

الأنسانية

للإمام العارف بالله

سيدى سلامه الراضى

مؤسس الطريقة الحامدية الشاذلية

بالجمهورية العربية المتحدة

طبعت باذن خاص من خليفته

سيدى ابراهيم سلامه الراضى

شيخ مشايخ الطريقة الحامدية الشاذلية

حقوق الطبع

محفوظة للمشيخة

CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه . وبعد فإن من تأمل فى الكون وتفكر ، وأمعن النظر وتدبر ، عرف بعض مافيه من الآيات البينات ، وتجلت له الأسرار الباهرات ، وإن مما خلقه الحق وأبدعه ، ودقائق الصنع أودعه : جسم الإنسان الذى أتقن الله صنعه ، وأودعه من سر الفكر ماأودعه . ولقد طالما كنت أتفكر فيه ، وأتأمل فى ظاهره وخافيه حتى سألنى من إشاراته حكم ، وتلبيته غنم ، أن أكتب شيئاً على قوله تعالى :

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ » .

فلم يسعنى إلا أن ألبى الطلب ، فكتبت هذه الرسالة ، وسميتها « الإنسانية » ، وأتيت فيها بما ظهر لى ، سالكا فى تحريرها سبيل الإيجاز ، متوخياً فيها طلب الحقيقة على قدر الامكان . وأرجو ممن يطلع على رسالتى هذه ، أن يسبل ثوب الستر على مافيها من الهفوات ، وليصلح مايراه من الخلل . فلقد قيل : جل من لاعيب فيه وعلا . لاسيما وقد كتبت هذه الكلمات خلسة لكثرة المشاغل . وعلى الله أتوكل وهو حسبى ونعم الوكيل .

واعلم - علمنى الله وإياك - أن الإنسان ذو جسم وروح .

والمسمى بالإنسان مجموعهما . ولا تظن المجموع ثالثاً غيرهما . وهذا هو مذهب أهل السنة ، لأن التكليف الشرعى والنعيم والعذاب الأخروى واقع على الإنسان جسما وروحاً .

وقال بعضهم : إن الإنسان هو الروح ليس إلا . وهذا الروح عاقل، مفكر ، يسمع ، ويبصر ، ويحس ، ويتخيل ، ويحفظ الخ . وإنما الجسم لباس له ، فيلبس فى كل عالم لبسه من جنس العالم الذى يدخله . فإذا كان فى الملكوت لبس جسما نورانياً ، وإذا كان فى الدنيا لبس لباساً هو ذلك الجسم الترابى من جنس عالم التحليل والتركيب والكون والفساد ، فإذا مات دخل عالم البرزخ فكان لباسه برزخياً ، أى لباساً متوسطاً بين أجسام الدنيا وأجسام الآخرة . فإذا قامت قيامته لبس جسما بحسب الآخرة الأبدية فكان لباسه أبدياً .

واعلم أن جسمه الترابى الذى يلبسه فى هذه الدار لا يفارقه أبداً فى كل حال ، ولكن إذا فاجأه الموت ، وانخلعت الروح . عن هذا العالم ، وبطل تعلقها بمشاغله ، انجمعت همتها ، وتوحدت وجهتها الروحانية ، فأصبحت ذات تأثير روحانى فوق الطبيعة التى هى سنة هذا الكون ، فتصرفت فى جسمها الترابى تصرفاً فوق الطبيعة ، فترفعه إلى أفقها ، فيصبح حكمه حكمها ، لا تحصره الأمكنة وليس له مقدار ولا حصر ، فينفذ فى الجدران من غير أن تنفتح الجدران ، أو ينفذ من مسامها .

وعلى مذهب القائلين بذلك لا يفنى الإنسان ، بل ينتقل من عالم إلى عالم . وكل نقلة تسمى موتاً باعتبار ما انتقل إليه .

وهناك قوم ذهبوا . إلى أن الأرواح لما كانت فى ذاتها منزهة عن الصورة والجسمية والعرضية ، والاتصال والانفصال والدخول والخروج ، والزمان والمكان ، كان تعينها بألباسها . وإذن لابدلها من ثوب تلبسه لايكون غير هذا البتة . فإذا تمزق ثوبها ولم يعد صالحاً لها ، ولا لسكناها ، صرفت وجهها عنه ، وتقمصت جسماً آخر بأمر الحق تعالى ، فتدخل حيواناً آخر وهكذا ، وهذا هو مذهب التناسخيين .

واستدلوا عليه بمثل أمراض الأطفال وتألمهم ، وأمراض البهائم وشقائها ، فإن هؤلاء ليسوا بمكلفين ، ولا ذنوب لهم . حتى يقال إن ما حل بهم كان عقاباً لهم ، وقالوا إذا عذب الحق هؤلاء من غير ذنوب كان ظالما ، وهو سبحانه منزه عن الظلم . فإذن كانت آلامهم عقاباً لأرواحهم على ذنوب سلفت لتلك الأرواح قبل تعلقها بأبدان الأطفال والحيوانات . ولهم على ذلك كلام طويل لسنا بصدده وهذا المذهب وإن كان يقول به مئات الملايين ولكنه مذهب ساقط لايعول عليه .

وقد ذهب أهل هذا المذهب ، ومعهم فلاسفة اليونان ، إلى أن الحشر فى الآخرة روحانى لاجسمانى . قالوا إذا كان أديم هذه الأرض التى نطأها من ترات تلك الأجساد التى بليت والعظام التى

نخرت ، ويتكرر خلق الإنسان والحيوان منها فكيف يعاد الإنسان بجسمه الذى دخلت ذراته فى تركيب مئات الملايين من الحيوان ؟ وقالوا إن الجسم الذى يؤخذ من هذه الأرض يكون مركباً من أجزاء فردة وكل مركب من جواهر فردة فهو من عالم التحليل والتركيب وقابل للفناء والدثور ، وأن الأبدية غير قابلة للفناء ، فلا يصلح أن يكون هذا الجسم الترابى أبدياً ، وإذن لا يكون الحشر جسمانياً .

ولقد فات هؤلاء ، أن الروح إذا ظهرت بقوتها التى هى فوق الطبيعة ، أخذت جسمها من الأرض أخذاً فوق الطبيعة ، لا تحكم للعقل القاصر عليه ، بل قال بعضهم : قد يجوز أن يعيد الحق تعالى من ذرة واحدة ـ أى جوهر فرد ـ جسم الإنسان فى الآخرة .

وعلى كل حال فالإنسان ذو جسم وروح ، والدليل على وجود الروح أنك ترى الإنسان عاقلا مفكراً ، لا تصدر أفعاله بغير إرادة أو مصلحة . ولا قائل بأن الجماد عاقل ، فلو كان الإنسان جماداً من غير روح كما قيل :

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

لكان قولا بأن الجماد عاقل مفكر ، وهو قول ساقط لا يقول به عاقل . وإذن لابد أن يكون المفكر فى الإنسان شيئاً كائناً وراء الجسم ، ولو كان هذا الكائن جسماً آخر لاحتاج إلى مفكر من ورائه ، فيتسلسل الأمر ، وهو بديهى البطلان ، فوجب أن يكون المفكر ليس بجسم . ولو كان هذا المفكر مركباً ، لكان جسماً ،

فهو ليس مركباً ، وكذلك لو كان له طول أو عرض أو عمق لكان خطا أو سطحاً أو جسماً كريا أو هرمياً أو مكعباً .. الخ . وقد بطل كونه جسماً ، وحيث ثبت أنه ليس بجسم ، فلا يحل مكاناً ، ولا يحله ، وليس له أول كأولية الأجسام ، ولا آخرية . وإذا أردت دليلا فانظر إلى صورك الخيالية فى أى مكان هى ، مع أنها ليست روحانية محضة بل برزت باستعداد اتصال تصرف الروح بالجسم .

ثم إذا مات الإنسان وبقى جسمه لم تجده يتحرك ، فلو كان الجسم هو العاقل لتحرك مادام باقيا . ولو قيل بان اعتدال مزاج العناصر الكيماوية فى الجسم هو الروح ، للزم عليه أن يكون الجماد عاقلا . ولو كان الجسم عين العقل لكان الميت يتكلم ، لبقاء جسمه بعد موته ، ولكان كل جسم عاقلا ، والمشاهدة تكذب .

ثم إن وزن جسم الميت لا يختلف عن وزنه فى حال حياته إلا بمقدار مافقده من الهواء وبعض الأغذية ، وهذا يدلك على أن الروح ليست بجسم . وإلا كان وزن الجسم بعد الموت أقل بكثير عما كان فى حياته .

ولقد حاول داروين أن يتخلص من القول بالأرواح ، فلم يستطع ، وكان آخر قوله إن الحق نفخ الأرواح فى النسمات الأولى ذات الخلية الواحدة ، ثم ارتقت الأنواع ، وانتقلت حتى وصلت إلى الإنسان كما يعرف من تتبع مذهبه .

واعلم أن هذا القول ، وإن كان فيه الإقرار بوجود الحق

والأرواح ، ولكنه باطل من جهة القول بأن الأنواع سارت فى النشوء والارتقاء. فإنه قد وصل فى مذهبه إلى القول بأن الإنسان آت من القرد ، وإن بينهما سلسلة مفقودة ، واستدل على ذلك بشىء من التشريح ، حيث وجد مشابهة بين القرد والإنسان ، على أنه لم يسلك فى مذهبه طريق البرهان بل بناه على الوهم والحدس والتخمين . ولقد رأينا أن كل حيوان متسلسل بين نوعين لايتناسل: كالبغال ، وكالحيوان المتناسل بين البقر والخيل المشهورة عند العامة بالسيسى . ومن أين جاء لداروين هذا الارتقاء والتغير اللذين يدعيهما فى عشرات الملايين من السنين ؟؟

واعلم أن الحق تعالى لما أراد بقاء هذا العالم إلى الوقت الذى أراده ، جعل الحيوان ذكراً وأنثى ، وركب فى الذكر والأنثى ميلا غريزيا مصحوبا باستحسان الذات . فإذا استحسن ذاتا ، دعاه حكم الميل إلى مقاربتها ، فإذا تلاصقا . قوى الميل ، وتلذذت الروح باتصال جسمها بذلك الجسم المستحسن ، فإذا ازدادت حرارة الجسم ، ترتفع حرارة شهوته وهو فى تلك الحال غارق فى الملذوذ المستحسن من ذلك الجسم ، فترتخى أوعيته ، فيندفع ذلك الماء الذى طبخ فى خصيته إلى عروقه المنوية ويخرج متدفقاً فى مجراه الذى جعل ذا تركيب مستعد بأعصابه إلى الانتشار ، فيجرى ذلك الماء فى المهبل ، حتى إذا اتصل بالبويضات فرزته وقبلت منه ما يصلح ، وفى ذلك الوقت يكون الرحم قد انفتح لقبول

ذلك الماء . حتى إذا استقر فيه ، انطبق عليه انطباقاً محكما ، فصار فى قرار مكين ، وهذا الماء هو خلاصة الإنسان ، وفيه كل ماهو مركب منه ، فكان استقراره فى الرحم كالبذرة من النبات توضع فى الأرض فينشأ الزرع بحسب قابلية تلك البذرة وقابلية تلك الأرض ، فما صلح خرج نباته صالحا ، وما خبث خرج نباته خبيثاً ، وما ضعف كان نباته ضعيفاً . فإذا كان فى الأب مرض كان مودعاً فى تلك الخلاصة التى تسمى بالمنى ، فإذا نشأ الإنسان منها كان ذلك المرض موروثاً من أبويه ، ولكن هذه الوراثة لاتماثل مورثها مماثلة تامة ، فقد يقاوم المرض وصف قام بالوارث من أمه أو من غذائه ، أو من الراحة أو الهواء أو أقليمه الخ . وقد ينتقل المرض فى الوارث إلى عضو آخر غير العضو المريض فى المورث فإذا كان المرض فساداً عاماً فى الدم ، ظهر ذلك المرض فى جسم الوارث . وقد يكون الطفل الذى يولد فى حالة كبر سن أبيه غير الطفل الذى يولد فى شباب أبيه . ومن يولد فى أقليم حار غير من يولد فى أقليم بارد . ومن يولد فى فرح غير من يولد فى غم وكدر لأن الفرح والكدر إذا داما طويلا أثرا فى الجسم ، فإذا أخرج خلاصة التناسل كانت بحسب حالة الجسم .

وقد خيل لبعض الناس أن من ينظر فى المنى بالنظارة المكبرة أى المكرسكوب ، يجد كل ذرة من المنى إنساناً كاملا ، وإنهم إذا حلوا فى الرحم مات غالبهم وبقى واحد أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة

وذلك آخر ما يمكن للرحم أن يسعه ، فإذا بقى أزيد من ذلك . تنازعوا البقاء فهلكوا أو هلك بعضهم وبقى البعض .

وهذا القول فاسد باطل من وجوه عدة فلا طائل تحت الاسهاب فى بطلانه .

ولقد جعل الله للأنثى ماء كما أن للرجل ماء . فإذا التقى الماءان كان ماء الرجل عاقداً لماء الأنثى ، حتى بالغ بعضهم فقال : إن الأنثى إذا وجدت الحرارة الكثيرة فى مائها حملت لأن حرارة مائها تجعله ينعقد من غير احتياج إلى ماء من الرجل . ولكن الولد الذى يجىء منها لا يتناسل ، كالدجاجة التى تبيض من غير سفاد ، ويقال لبيضها ريحى ، ولا يكون فيه فرخ .

ولنعرض عن هذا القول إذ لسنا بصدده . فنقول إن كل ماء هو خلاصة الجسم الذى أتى منه . وكل ماء جسم مركب من معادن مختلفة : ففيه الحديد والنحاس والرصاص والذهب والفضة . إلى غير ذلك من المعادن والعناصر البسائط . وبعض هذه العناصر قد كمل وجوده ، وبعضها قد نقص عن كماله . فقد يكون ذهبه لم تكمله الطبيعة فانحط عن كماله ، وكذلك بقية معادنه وعناصره . وقد تسوى الطبيعة هذه المعادن حال وجودها فى الرحم بواسطة الحرارة والرطوبة . فيكمل المعدن الناقص ، وقد يقف لا يتقدم ولا يتأخر ، وقد ينقص عن كماله أو يزداد نقصانه بحسب المواد الكيماوية التى تنصب إليه من جسم الأم ، والأمراض التى تصادفها .

واعلم أن هـذه التسوية المعدنية لا تظهر لـكل ناظر ، بل هو كمال ونقص لبعض الجزيئات المركبة من أجزاء فردة ، إذ المعدن ليس هو عنصراً بسيطاً بل مركباً من عناصر مختلفة ، وأما العنصر فهو ماتشابهت أجزاؤه فى الخاصية . إذ لا تتفاضل الأجزاء لذاتها وإنما التفاضل بالخواص . وما يقال من أن الذهب والفضة بسائط أو أن المـاء مركب من جزءين بسيطين غير الأجزاء التى يحملها حال سيره ، وأن هذه البسائط لا تقبل التحليل ، فهو قول قد كشف العلم فساده ، إذ تمكن الباحثون من تحليل أحـــد جزءى الماء ، وصرحوا بأنه يجوز أن يأتى زمن يتيسر للعلم أن يحلل الجزء الأخر إلى أجزاء متعددة .

واعلم أن الـكون كله مركب من أجزاء كالهباء ، انفتحت فى الغيب الذى تتلاشى العقول أمامه . إذ لا يتصور العقل أينية مجموع الـكون كله ، وما يقال من أن أجرام الـكون فى فراغ لانهاية له فهو قول ساقط عند المدققين فإنه لادليل عليه . وكل قول بلا برهان أمكن كل إنسان أن يدعيه . ثم إن ذلك الهباء كان يدور دورة كرية بحكم الجذب والدفع ، والمسك والتضريس والثقل النوعى والمرونة ، والرطوبة والحرارة والقصـــور الذاتى والأصل فى الدوران الحرارة والرطوبة اللتان هما على طرفى نقيض . فـكلما قوى أحدهما طرد الآخر والرطوبة بها التماسك ، والحرارة بها التحليل لأنهـا لخفتها تطلب الأعلى ، فتنفـذ بلطافتها من مسام

الأجسام ، فتحلل تركيبها . وليست النار هى اللهيب إذ هو هواء اختلط بالمواد الدهنية المتصاعدة من الجسم المحترق ومن الأجزاء القابلة للاحتراق من الهواء ولو وضعنا على اللهيب إناء منع الهواء عنه لانطفأ اللهيب فى الحال ولم نجده . وكذلك ليست النار هى لون الفحم الذى صار جمراً . فذلك مكتسب من الهواء ، ولو غطيناه لوجدناه أسود مع وجود النـــار فيه ، كالفحم الناعم المشهور بالسن .

واعلم أن أجزاء النار تسرى إلى بعضها ، فإذا وضعنا جمرة فى خشب اتصلت الأجزاء النارية التى فى الخشب بالجمرة فظهرت لتكاثف بعضها على بعض ، فإذا ظهرت والهواء أثقل منها ضغط عليها يطلب مركزه فيطرد النار إلى الأعلى فتسرى النار متخللة أجزاء الهواء . ولا يخفى أن الهواء يشبه بحراً عظيما ، عجاجاً ، متلاطم الأمواج ، فإذا وجد فيه بعض الأجزاء النارية تلاشت تلك الأجزاء القليلة بين ذرات الهواء التى هى كالبحر ، وربما يوجد فى الهواء بعض الحرارة بسبب تلك الأجزاء النارية المنبثة فيه ، وقد تمكث فيه زمناً وهما يتعالجان ويتغالبان فلو قويت النار على الهواء باجتماع أجزائها بكمية عظيمة أحرقت الهواء ونفذت فيه . ثم إن الهواء يحمل معادن كثيرة من الذرات البسيطة المعدنية . ففيه ذهب وجير وفضة وفحم وغير ذلك من الأجزاء . فضلا عن ماء يحمله الهواء ورطوبة كثيرة أو قليلة ، وربما يذوب بعض

الأجسام أو يتحلل ، وتتعالج الرطوبة مع النار . واعلم أن معنى كون الماء يطفىء النار أنه يحمل رطوبة ضد النار ، فإذا ألقيت بعض الماء على النار اجتمع رطوبة وحرارة فتهرب إحداهما إذ هما ضدان لا يجتمعان ، فتصعد النار طالبة مركزها الأعلى ، فإذا صعدت أجزاؤها صادفها فى طريقها بعض أجزاء الماء ، فاخترقتها النار للطافتها ، ولكن لما كانت أجزاؤها المتصاعدة بكمية وافرة متراكمة حملت فى طريقها أجزاء دقيقة من الماء وذلك هو البخار ، وهو عبارة عن أجزاء من الماء حملتها النار ،

فإذا حل الماء فى الرحم وأمد من الأم بالأجزاء التى تنميه ، وهو فى ذلك محفوظ من التعفن لستره عن الهواء ، تجمد شيئاً فشيئاً ثم امتد ثم ابتدأ انطباع الصورة فيه ، وتخلقت أعضاؤه ، حتى إذا ما استتم خلقه وتصويره ، وصار جسماً كاملا يصلح لسكنى الروح ، دخلته الروح فتحرك ، حتى قال بعض الفلاسفة ما استوجبت المادة صورة إلا كان حقاً على واهب الصور أن يهب لها تلك الصورة ويقاس على ذلك أن يستوجب الجسم روحاً ولا تفهم أن الواجب على الله بمعنى أنه مقهور على ذلك ، بل هو بحكم التفضل ، وحكم السنة التى لا تتبدل بوضع الله تعالى .

واعلم أن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجسام . ولكنها كانت مستورة فى الغيب ، فإذا تقارب الزوجان ظهر من اجتماعهما ومن بين روحيهما روح الولد التى كانت مستورة فى غيب روحانية

صلب الأب إلى رحم روحانية الأم ، فسكنت فى الماءين المتصلين بين الزوجين فكان النسل روحياً جسمانياً ، فكانت روح الولد ناظرة إلى الماء الذى هو جسمها ، فيتشكل الماء بأمر الله على يد الملائكة المدبرات بحسب طلب تلك الروح الناظرة إلى الجسم ، وبحكم قابلية الماءين والمكان والظواهر الطبيعية التى تحفه ، فينشأ إنساناً سوياً ، يشبه أباه وأمه ، وقد يؤثر عليه بعض الظواهر فينشأ ناقص الخلق .

ومما يدلك على أن التصوير بأمر حكيم مدبر ؛ أن النطفة إذا كانت تنمو بطبعها كان نموها على شكل الكرة لاستواء كل جزء من أجزائها ، ولكننا نرى أن الأجزاء التى تكونت منها الرأس أكثر من الأجزاء التى فى اليد ، ونجد للرأس غلافاً من العظم متيناً يحفظ المخ . بخلاف البطن والعنق . فإذن لا يكون سير الأجزاء على طريقة طبيعية ، بل هى وضع حكيم مدبر عليم بالمنافع والمصالح ، ولو تأملنا ما فى الإنسان من ذلك لانبهرت عقولنا ، إذ نجد فيه تركيباً دقيقاً وصنعاً عجيباً .

فالأعصاب آلة للمخ تشبه أسلاك التلغراف تنقل إليه الحرارة والرطوبة ، والخشونة والملاسة ، واللزوجة ، واليبوسة ، وتنقل إليه الطعوم والروائح ، والأصوات وصور المرئيات . كل ذلك بواسطة الأعصاب إلى المخ . وهو الحاكم الذى يحكم بما أدركه من العلم قبل ذلك على كل شىء تنقله إليه الأعصاب ، وفيه العظم

والأربطة والغضاريف والأوتار .

وجعلت الأذن غضروفية لأنها لو كانت لحماً لكانت مدلاة فلا يكون ذلك جمالا ولا تحصل به الحكمة من حفظ الأذن . ولو كانت عظماً فى الوجه لكانت مشوهة له ، وكانت بعيدة عن معنى الجمال ، فجعلت غضروفية بين اللحم والعظم ، وجعلت فيها تعاريج حتى إذا تحرك فم الإنسان عند خروج الهواء من حنجرته وحصل القرع العنيف من الهواء الخارج من الفم على الهواء الخارج عنه انطبع فيه وتقطع الهواء تقطيعاً بحسب حركات اللسان والشفتين والأسنان ، وحصلت تموجات هوائية ، فتتحرك الذرات المتجاورة فى بحر الهواء كتموج الماء ، ولا تزال متموجة متذبذبة بحسب ذلك السريان حتى تنتهى بسرعة عظيمة إلى الأذن ، فيدخل الهواء متموجاً فى الأذن الغضروفية ، ولولا تعريجها لدخل الهواء فى الصماخ مندفعاً ، فيؤثر على الرق ، فإذا لم يخرقه أضعفه ، ولا يزال يضعف حتى يبطل نفعه . وانظر كيف أن الرق أى الطبلة يكتنفه هواء من الداخل والخارج ، ويتصل به أعصاب توصل إلى المخ الأصوات ومن تأمل ذلك وجد أن صانع الفوتغراف قد اختلس الصنعة من الخليقة .

وانظر إلى العين وطبقاتها ، وإنها جعلت على شكل مقوس ، ولو استدارت لكان النظر لا يتجه إلا مستقيم ، ولكنها بنصف دائرتها خرج الضوء على شكل زاوية منفرجة قاعدتها المرئى وجعل

الحق بعض طبقاتها كالزجاج والبعض جليدياً ، والبعض لانطباع الصورة فيه . وكيف غطيت بجفنين يحفظانها من الطوارىء ، وجعل لها أهداباً ، وجعل فوقهما حاجبين نبت فيهما الشعر زينة للوجه .

وكذلك لو نظرنا إلى وضع أصابع اليد ، ورأينا بعضها غير مساو للبعض فى الطول ولا محازياً له نجد الأصابع عند انطباقها صارت متساوية ووجدنا الأبهام يشبه القفل عليها ثم نجدها عند الانطباق تصلح للدفاع وعند فتحها لوضع الشىء وعند إمالتها تصلح مغرفة وعند إمالة أطراف الأصابع مجرفة وقد ركب فيها أظافر لا هى بالعظم اليابس ولا باللحم اللين ولا بالغضروف الذى ينثنى تصلح لهرش الأبدان وإزالة قشور الفاكهة وأمثال ذلك .

ثم لم يجعل الحق جسم الإنسان قطعة واحدة بل ركبه من أعضاء كثيرة وجعل فيها مفاصل ربطها بالأوتار والأربطة حتى يستطيع الإنسان أن يحرك أى جزء وحده .

وجعل للإنسان فكين وركب فيهما قواطع وأنياباً وطواحن فالأسنان للقطع والأنياب للنهش والأضراس للطحن وجعل المتحرك هو الفك الأسفل لصغره إذ لو كان المتحرك الأعلى لكان منظره مضحكا . وجعل غدداً للعاب ليسهل به المضغ ويجعل الفم والحنجرة واللسان فى غاية اللين ولولا ذلك لما أمكن له أن يسيغ لقمة واحدة وجعل اللعاب ماء عذباً فلو كان غير عذب لتأذى به

للإنسان بخلاف ماء الأذن فإنه مر ليميت الدود الذى ربما يوجد فى الأذن بخلاف ماء الأنف فإنه متغير وماء العين فإنه مالح لأجل صيانتها ونداوتها وجعل للحنجرة غطاء يسمى لسان المزمار يطبقه عند البلع .

فإذا تم الهضم الأول ونزل الطعام إلى المعدة ابتدأ هضمها بحسب السن وكلما تقدم السن تأخر ابتداء الهضم وتأتيه الصفراء من الكبد بحرارتها إلى الطعام ولكنها لما كانت حارة جعل الله فى الظهر عضواً يرسل للطعام مادة تلطف حدة الصفراء وقد يستعان على الهضم ببعض مادة ترشح من الطحال . فإذا استحال الطعام إلى مادة تشبه العجينة السائلة تمشى فى المعى والأمعاء الدقاق . وجعل الضيق فيها لأجل أن يتأخر الطعام فى سيره حال وجود الغذاء فيه . وكلما قلت المادة الصالحة للغذاء لا يحتاج إلى تأخر فى سيره .

وقد جعل الله شيئاً يشبه الدهن متصلا بالمعى والأمعاء تسرى فيه مادة الغذاء فينقله إلى القلب وهناك يحصل نضجها فتكون دماً أميل للسواد . وبواسطة حركة الدفع المسماة بالنضج يصل الدم إلى الرئتين الإسفنجيتين المتحركتين حركتى الشهيق والزفير . فإذا دخل الهواء ولقى الجزء الصالح من الهواء ذلك الدم فى الرئتين صار أحمر ثم يميزه الكبد . فإذا كان صالحاً ناوله للقلب فيدخل إليه من تجويفه الخاص به ثم يتوزع على العروق التى جعلها الله

فى الجسم شبه المواسير . وقد جعل الله بين العروق نسيجاً يشبه الشبكة يسرى فيه الدم فأى مكان جرحته تجد فيه دماً يسيل . وجعل الدم كرات لأن الجسم الكروى أميل للبقاء وكلما كان الدم فى الطقس البارد كان أقرب إلى اللون الأحمر المشرق . وكلما كان فى جو حار كان الدم أحمر قاتماً ، ولذلك كانت كثرة تعاطى الليمون مثلا تحل لون الدم ، فعدوا البارد الشديد البرودة من السموم وكذلك الحار الشديد الحرارة أيضاً . إذ السم الحار يهيج الدم فيفسده ، والبارد يحله ويجمده ويفسده وذلك ظاهر فى سم الأفاعى والعقارب فإذا وجدت فى الجسم كمية عظيمة من الرطوبة الشديدة وجاء الدواء الذى فيه سم حار معادلا لتلك الرطوبة كمية أو قوة وكان التعادل تاماً حصل الشفاء . إذ بذلك يعتدل المزاج الذى هو الوسط الكيماوى الذى تحصل به المعادلة المسماة مزاجا . ولابد أن يراعى فى ذلك الزمان والمكان والحمى العارضة للجسم ، والضعف والقوة ، والأمراض الأخرى التى فى الجسم والأعضاء التى يمر عليها الدواء والغذاء والسن وكمية الدواء وغير ذلك .

ثم إذا امتلأت العروق والشرايين بالدم أخذ القلب مافاض منها . وقد وهم قوم أن الروح هى الأم ، وهو قول ساقط لايعول عليه ، ولا يؤيده برهان ولا عقل ولا شرع .

فإذا انتهى الطعام إلى الأسفل وصار تفلا بقى هناك بالقوة

الماسكة حتى يخرجه الإنسان بإرادته .

وقد جعل الله للماء مرشحين يرشحانه . فينزل إلى المثانة من الكليتين ماء صافياً حتى لايعتورها الفساد ، وكلما كان الماء غير نظيف انصب ما فيه إلى المثانة وتجمد وصار يشبه الحصى ، وقد يتجمد فى المثانة أو فى مجرى البول ، وقد يحدث جرجاً أو سداً وربما أحدث حمى فى المثانة . والتهاباً قد يؤدى إلى الموت .

وقد جعل الله الأضلاع كالقفص ، لتحفظ الأعضاء الرئيسية ولم يجعل للبطن قفصاً ليتمكن الإنسان من الشبع .

وقد أتقن الله صنع الإنسان فجعله مركباً من عظام فوق المائتين والأربعين عظماً غير العظام التى تشبه الحشو ، فجعل الرأس مركباً من عظام تزيد على العشرين عظمة غير الأسنان ، والأضراس ، والأنياب ، وجعل الرقبة مركبة من سبع خرزات فيها انحراف وزيادات ونقصانات لأجل انطباق بعضها على بعض ، وجعل عظام الظهر نحو أربع وعشرين خرزة غير عظم العصعص والعجز وجعل فى الأسنان فوق الخمسمائة عضلة بلحمها وأعصابها وأربطتها وأغشيتها على اختلاف أشكالها ، وجعل منها للعين نحو أربع وعشرين عضلة لو اختلت واحدة لسرى الفساد إلى العين فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقد زعم بعض الفلاسفة أن الإنسان هو الرأس فقط لأنه يحتوى على المخ الحاكم والسمع والبصر والذوق والشم ، ويأتيه

الحس بواسطة الأعصاب من سائر الجسم ، وقالوا إن بقية الأعضاء إما أن تكون آلات مجهزة له كالقلب والرئتين والكبد والمعدة وغيرها ، وإما أن تكون آلات لتحصيل أغراضه : فاليد يتناول بها ، والرجل يسير بها إلى حيث يشاء ولما كان المخ أكبر حاكم فى الجسم ، وله الحس فى كل شىء وكان تركيبه دهنياً يتأثر بأقل شىء جعل الحق له محيطاً من العظم مركباً من أجزاء كثيرة ليكون حافظاً له .

وقد جعل الله المخ قسمين قسماً جامداً وقسماً لزجا ، وكلما ازداد فكرة كثرت التعاريج فيه ، فإذا ارتبك الفكر ظهر الارتباك فى التعاريج . والفكر يحدث حرارة فإذا اشتدت الحرارة ربما حدث جفاف فى المخ ، فإذا استعين عليها بالمواد الدهنية طلاء أو أكلا أو شربا ربما حصل الشفاء واكتسب المخ شيئاً من اللين ، وقد يتأثر بسوء الهضم ، أو حمى المعدة ، أو فساد الدم ، أو قلته أو كثرته ، أو حر أو برد ، أو انفعال نفسانى ، أو طارىء من جهة العين أو غيرها .

وقد أتقن الله صنع الإنسان فجعل فيه فوق المائتين والأربعين عظماً غير العظام الصغيرة التى تشبه الحشو فجعل فى الرأس فوق العشرين للقحف واللحيين غير الأسنان والأنياب والأضراس ، وجعل فيه فوق الخمسمائة عظمة لولاها لما أمكنه أن يتحرك . وجعل الطحال يخدم الكبد بجذب المادة السوداء والمرارة تخدمه

يجذب المادة الصفراء فتبارك الله أحسن الخالقين .

ومن عجيب أمر الله أن المـــرأة لاتحيض مدة الولادة غالباً توفيراً لقوتها وتنمية للجنين ويمكث بعضه فى المشيمة فينزل حال الولادة ويمكث ما تأخر من الجسم نازلا إلى شهرين غالباً إلى أن يحصل النقاء . ويكون وجه الجنين إلى ظهر أمه وقاية لوجهه وصدره من الطوارىء فإذا ابتدأ نزوله انقلب فكان رأسه أسفل لينزل برأسه ليسهل الوضع فإذا كانت بنتا كان ظهرها إلى القابلة وأما الولد فيكون وجهه إليها .

ثم أن الحق تعالى يحول بدل دم الحيض لبنا يخرج من الثدى لأن الثدى من أعضاء التناسل كالرحم ولما كان الطفل ضعيفاً لاتقوى معدته على الأطعمة الغليظة أنزل الله له لبنا رقيقاً يسمى بالمسمار . وكلما قويت معدته ازداد اللبن دسماً . فلذلك لاتصلح المرضع التى ولدت من سنة ، لأرضاع طفل عمره شهران لأن معدته لاتقوى على الدسم الذى فى لبنها . كذلك المرضع التى وضعت من شهر لاتصلح لأرضاع طفل عمره سنة لأن لبنها لا يكفى لغذائه .

ولما كان اللبن الصرف يورث عطشا جعل الله فى الثدى عيوناً من اللبن وعيوناً من الماء ليحصل الغذاء والرى معاً .

وقد ألهم الله الطفل أن يلتقم الثدى وهداه إليه من غير أن يعقل ولم يعلمه أحد وعرفه كيف يمص اللبن مصاً ولا يزال

اللبن فى الثدى مادام محتاجاً إلى الرضاع ولايقوى على أكل الطعام فإذا قوى عليه ابتدأت الأسنان تنبت فى فمه وانظر كيف ساق الله من الغذاء مادة الجير مصحوباً بالمواد التى تحفظها إلى الفكين ونبتت الأسنان على أشكال متنوعة بحسب المصلحة والحاجة وعلى عدد خاص .

وكل هـــذا مما يكذب المتهوسين الذين خرجوا عن طور العقلاء وسموا أنفسهم بالماديين فأنكروا وجود الخالق جل شأنه وأعماهم الله عن الآيات الباهرات والتركيب العجيب والنظام البديع الذى لاتخلو منه ورقة ولا حيوان ولا يصدر إلا عن حكيم مدبر . ومع ذلك تراهم يسمون ذلك بناموس الطبيعة ويقولون الطبيعة أنبتت الأشجار وأوجدت الحيوان والإنسان على أننا «لو سألناهم عن هذه الطبيعة هل لها وجود مستقل أو لاوجود لها وهل هى عاقلة أو غير عاقلة وهل هى متغيرة أو قديمة وإن كانت متغيرة فمن الذى يغيرها وبالطبع تحتاج إلى مغير ويتسلسل الأمر إذ يحتاج مغيرها إلى مغير يغيرها وهكذا إلى مالانهاية وهو باطل إذ لابد من مغير لايتغير وهو الله تعالى» لم يستطيعوا أن يأتوا ببرهان يؤيد دعواهم . وقامت عليهم الحجة وقالوا بوجود البارىء تعالى .

ولقد شاع هذا الأمر بين كثير من أهل الطبقة التى تدعى التنور والتهذيب . فترى أحدهم يتشدق بقولهم فعل الطبيعة وجمال

الطبيعة من غير علم ولا برهان . بل يرى ذلك من التمدن والتنور ويدعى أن خلاف ذلك من المذاهب القديمة الساقطة التى نبذها العلم العصرى . ولو أردت نصحه لم يلتفت إليك وسخر منك وقال ماأشبه كلامك بكلام الفقهاء الذين أظلمت عقولهم وتبلدت أذهانهم واعتادوا الجمود والوقوف على الخرافات الموروثة . يشير بذلك إلى أنه قد ارتفع من حضيض الجهل إلى سماء المعارف والعلوم الحديثة ولم يلتفت إلى دلائل توحيد الحق فى كل ذرة من ذرات الكون كما قيل :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وكما قيل :

ورق الغصون دفاتر مشحونة بأدلة التوحيد

فسبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة . ولكنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

وإذا كان الإنسان لايدرك روحه التى بها حياته ويتكلم ويسمع ويبصر بها فكيف يريد أن يدرك الحق تعالى الذى لايشبهه شىء وهو حاضر مع كل شىء بمعية لاتجعله داخلا فى كوننا فهو معنا بتنزيهه وتأمل كيف عقلك معك وليس له مكان وخيالك معك وليس له مكان بل روحك معك وليس لها مكان لأنها ليست بجسم فتحتاج إلى مكان . فإن قلت إنك قد وصفت الروح بكثير من أوصاف البارى حتى كدت تجعلها إلهاً

فالجواب أن أخص صفات البارى تعالى القيومية . والروح وإن كانت موصوفة بهذه الصفات ولكنها لم تكن قائمة بنفسها بل بقيومية الحق وهو الذى قومها وأوجدها . فالقيومية لا تكون إلا لله تعالى وحده وبذلك تعلم عدم امتناع اتصاف الروح بالتنزه عن الزمان والمكان . فإن مالم يكن جسما لايحتاج إلى فراغ يشغله وهذا أمر ظاهر لمن عنده أدنى تأمل فإذا كان الانسان عاجزاً عن معرفة نفسه ، فمن باب أولى يكون عاجزاً عن إدراك كنه ربه .

ولقد مر بل قبل هذا أن الانسان حال كونه ماء فى الرحم يشبه البذرة فى الأرض . لأن هذه البذرة تكون الأرض لها أما والمكان الذى يحفظها من الأرض رحما . وقد جعل الله فى تلك البذرة خاصية تجذب بها الاجزاء الصالحة لها من المعادن التى فى الأرض . فاذا نزل الماء عليها ولانت ، صارت كالعجين واختمرت وربت مادتها بما جذبته من الأرض وحولته إلى مادتها فلم تعد تسع قشرتها المادة التى ربت فيها فتنشق من أعلاها وأسفلها وتخرج المادة من الجهتين علواً وسفلا فيسير الأعلى حتى يرفع التراب ويظهر إلى الخارج . وكلما كان فى باطن الأرض كان أبيض . وكلما ظهر إلى الهواء تلون باتحاد مادته بأجزاء الهواء وما فيه من العناصر الأصلية والطارئة عليه وضوء الشمس والقمر والنجوم فحدثت خلاصة كيماوية فظهرت الأوراق والثمار باللون الأحمر والأصفر والأخضر وغيرها .

ولذلك تجد الظاهر من الأثمار له لون والباطن له لون آخر .
ولا تظن أن التأثيرات الظاهرة لاتسرى إلى الباطن مطلقاً . بل
لها سريان ولكن بحسب استعداد الباطن حال حجبه عن الأضواء
ومباشرة الهواء .

ثم إن الهواء يسرى فى مسام الأشجار والنباتات فاذا امتزج
بها الجزء الصالح لها ولم يجد الجزء غير الصالح مكانا له دفعته
الشجرة إلى الخارج . فمسام الأشجار دائماً فى جذب ودفع تشبه
الشهيق والزفير فى الإنسان . وهـــذا هو وجه من يقول بأن
الأشجار والنباتات تتنفس على الدوام . وكما أن الأشجار لها
ساق يصعد إلى الأعلى فلها ساق يمتد إلى الأسفل يبحث عن الماء
الذى به حياته ، وعن المواد التى تصلح له . فاذا امتد جذير
الأشجار وصادفه بعض الأحجار ربما تجد ذلك الجذير بشعره
الدقيق يخرج منه عصير على ذلك الحجر فيذيبه ويمشى من وسطه
وكذلك الإنسان حال كونه ماء فانه ينبت كالشجرة ويجذب إليه
المواد التى تصلح لمزاجه الكيماوى . ولايزال يستكمل خلقه حتى
يخرج من الرحم فيكون فى هذا الوقت كالنبات عند بروزه من
الأرض وحينئذ يبتدىء ظهور تأثير مباشرة الضوء والهواء عليه ،
وتأثير المعادن التى تأتيه بواسطة الغذاء . فالنبات شجر ثابت
لاينتقل . والانسان متنقل يسير حيث أراد . وقد جعل الله لكل
نوع من المخلوقات حداً يقف عنده ، فاذا كمل ارتفاع النبات

أو الشجر أو الحيوان أو الإنسان فلا يعود يرتفع بعد ذلك وذلك مبنى على قصور البذرة النوعى فى قوتها ومادتها . ويراعى فى ذلك أرضها وجوها وخدمتها وماؤها وغير ذلك . وكما جعل الله لارتفاعها حداً فكذلك جعل للعقل حداً لايتجاوزه من السنين وهو العقل المطبوع أى الغريزى أو تسميه الفطرى وأما لاكتسابه بالتجارب فهو لاينقطع ما دام الانسان حياً ولم يختل شىء من تركيب رأسه .

وأعلم بأن العقل يتفاوت بحسب تركيب المخ وثقله وخفته وتقسيمه وشكل الرأس وصفاته وكدورته وقوته وضعفه ووراثته وكبر الرأس وصغره . فإذا استتم نمو الرأس وثبت المخ على حالة واحدة كان قريباً من الثلاثين سنة فلا يزيد الطبيعى عن ذلك وقد يصادف الإنسان مرض فيغير شكل المخ أو الرأس فيضعف أو يزيد .

وأعلم أن العقل والحس هما للروح والمخ والأعصاب آلة لها تفيض على الجسم من قواها مايقبله استعداد الجسم وكلما كان صحيحاً كان الفيض عليه أكثر مالم يمنع من ذلك عارض من شكل أو سوء وضع فى المخ أو الدماغ . ولا تظن أن ثقل المخ وحده دليل على قوة الادراك فكم من شخص مخه ثقيل الوزن ولكنه قصير الفهم . وكما أن الأشجار والنباتات لها زمن تكون فيه كالجنين فى الرحم وزمن تكون فيه كالطفل وزمن كالصبى واليافع

والمراهق والبالغ والشاب والكهل والشيخ فذلك كله يمر على الانسان .

وكما أن الزرع إذا بلغ غايته وأدرك حصاده يبس وسقط فكذلك الانسان يبلغ نهايته فييبس ويسقط . وكما أن النخلة الانثى تؤبر بطليع الذكر من النخل فكذلك فى الانسان وكما أن الشجر يحصل له كثير من الأمراض فالانسان كذلك قابل لها . فالدم الذى لايصلح يسقط إلى الأسفل ويسمى البواسير ومن شدة ضغطه تحصل الزوائد ويخرج بعد احتقانه بالتشريط أو القطع أو الدود أو اللبخ أو يتعفن فينفجر وحده وقد يصعد الدم إلى الأعلى فيكون باسوراً دماغياً أو أنفياً ويسمى الرعاف وهذا الداء ربما كان من ضروريات الحياة إذا كان الدم السائل دماً متغيراً أو غير متغير قليل . وقد يحدث بسبب منعه أو قطع زوائده احتقان يؤثر فى القلب أو المخ وقد يتعدى من المخ إلى العصب فينشأ عن ذلك سكتة أو شلل فى الأعصاب فلابد لمن كانت بواسيره تنزف دماً كثيراً ، أن يبقى ولو زائدة واحدة يتصرف منها بعض الدم المحتقن . وقد يصاب الانسان بفقر الدم فتسقط قوته ، وتضعف معدته ، ويسوء هضمه ، وتضعف ذاكرته وتصوره ، وقد يحصل فى الدم تكدر فيقف فى محل أو محلات متعددة من الجسم ، فيحصل بسببه حرارة بحسب ذلك التكدير من حمى أو حصبة أو جدرى أو حكمة أو جرب أو زهرى وذلك

الفساء فى الدم يتولد عنه ذرات صغيرة حية . وكما أن للمش دوداً وللفول سوساً ، فكذلك كل تكدير يحدث بسببه حيوانات حية مختلفة الأشكال وقد يكون بعضها ساماً بكمية وافرة وبعضها أقل وكلما كان التسمم فيها كثيراً كلما كان خطرها أشد . حتى أن بعضها قد يسمم الجسم فيموت فى بعض ساعات كما يشاهد فى الهواء الأصفر . وقد يحدث مرض للمعدة فيمددها ، فيؤثر على المخ ، فتتولد عنه خيالات وأوهام وخرف وانزعاج

وأعلم أن الرضاع ، يغير بعض الطباع ، إذ يكون المخ قابلا للتغيرات فى بدنه ، واللبن الذى يسرى فى جسمه من المرضع يكون قواماً لجسمه ومخه فتسرى من جسم المرضع خلاصة تغير طباعه ودون ذلك الوسط الذى ينشأ فيه الانسان .

ولما كان البطن تحته العانة ، ولم يكن ماء الرجل من بطنه ، ولا عانته . أشبه أن يكون آتياً من ظهره : ثم أن الظهر يكون فيه الصلب الذى هو قبل آخر السلسلة الفقرية — ناسب أن يكون الماء منصباً منه لأن الخصية قريبة له والترائب ماحفت بالصلب وبالطبع يكون فيها المادة المنصبة إلى الخصية التى هى كغدة تفرز المنى وتحبسه فيها . وكلما طال مكثه أثر على الجسم والدم وولد خيالات وأوهاماً وقد يؤثر على المزاج فلذلك كان صرفه من الأمور الواجبة ولا ينبغى أن يكون إلا فى حلال إذ أن صرفه فى حرام يؤدى إلى هتك الحرمات . وليتذكر الزانى أقاربه

من النساء كأمه وزوجته وأخته ، وليعرض على نفسه هل يرضى أن يزنى بهن أحد من الرجال ؟ ومن مضار الزنا أنه قد يولد له ولد ويعيش فى النصرانية أو اليهودية وقد يرث مال أبيه غير أقاربه وقد يفوته ميراث أبيه وأقاربه وربما تزوج أخته أو عمته فتختلط الانساب ويسرى هذا الاختلاط إلى يوم القيامة .

ولو نظر الانسان إلى أصله ومصيره لقلل من خيلائه وفخره كما قال على كرم الله وجهه « ما لابن آدم والفخر وإنما أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة » . ومن عجائبه أنه إذا لبس ثوباً من الصوف مثلا نجده يتبختر فيه وقد نسى أنه قد لبسه كبش أى خروف قبله وكان الأولى بالتبختر هو الخروف ! وقس على ذلك بقية أحواله تجدها من العجب العجاب وذلك مما يدلك على أن العقلاء فى هذه الدنيا قليل . وأن غالب الناس حمق .

وأعلم أن الانسان من حيث روحه ليس بجسم ولا عرض ولا يحتاج إلى فراغ يشغله . مثل العقل فإنه لا يحتاج إلى مكان يحل فيه والروح والعقل واللب والنهية والفكر والنفس جميعها واحدة والاسماء مختلفة بالاعتبارات . فباعتبار التجرد يسمى روحاً ، وباعتبار اتصاله بالجسم يسمى نفساً ، وباعتبار تقلبه فى أطواره يسمى قلباً ، وباعتبار أنه الخلاصة يسمى لباً ، وباعتبار نهيه عن كل مالا يليق يسمى نهية ، وباعتبار تفكره يسمى فكراً وهكذا يسمى حافظة ومصورة وحساً مشتركا ومخيلة .

وأعلم أن الروح واحدة وذاتها صفاتها . إذ لو كانت صفاتها غير ذاتها لكانت مركبة وكل مركب يفنى . ولا قائل بفنائها . ثم لو كانت مركبة ، لقام العلم ببعضها دون بعض . فكانت عالمة جاهلة فى آن واحد . ثم إن ما يتركب يكون جسما وهى ليست بجسم . وقد تقدم لك برهانه . ثم أنها ليست بالكبيرة التى تملأ مابين السماء والأرض ، ولا بالصغيرة التى بقدر سم الخياط فذلك كله من شأن الأجسام ولكن كبرها وصغرها للرائى إنما هو تطور روحانى لها . لايحكم عليها ، ولايجعلها منحصرة فى المكان . وقد جعل الله لها من القوة ماتقتلع به الجبل ، ولكنها لاتفعل ذلك حرصاً على جسمها الذى هو بمثابة بيت لها ، أو آلة أو مركب تركبه ، إذ لو فسد ذلك الجسم لم يعد لها مكث فى هذا العالم . فلذلك كانت تحبه وتعشقه . لأنه طالما كان موجوداً فى هذا العالم ، تكون هى موجودة فى هذا العالم ، وإذا فسد ارتحلت عنه . فإذا تجردت الروح عن هذا الجسم وأبقت له رقيقة منها ، تنظر بها إليه ، أمكنها بذلك التجرد أن تقتلع الجبل وتحمله من غير واسطة جسمها . كما يحصل للأولياء والأنبياء والسحرة . لأن التجرد إما أن يكون فى رضاء الله فذلك تجرد الأنبياء . أو يكون فى رضاء الله ورسوله فذلك تجرد الأولياء . أو يكون بعيداً عن رضاء الله ورسوله فذلك تجرد السحرة .

وقد زعم قوم وشاع زعمهم فى هذا الزمان ، فقالوا إن السحر

لاحقيقة له ، وسخروا ممن يقول بوجود الجن والشياطين . وقد فاتهم أن الجن خلق يشبهون أرواح الآدميين فى جسم مظلم . وقد ظهر فى هذه الأيام قوم أظهروا شيئاً من بعض تأثيرات القوة الروحانية ، فخاطبوا الأرواح وسموه بعلم الاسبرتزم أو التنويم المغناطيسى . وهذا العلم يعد فى أقسام السحريات المحرمة فى الشرع ولا يخلو من نفث الشياطين فيه .

ولقد توغل فيه بعضهم حتى قال باستحضار الأرواح مجردة وما دام ذلك يظهر على يد الفساق وغير أهل الدين وهو من خوارق العادات ، فلا يكون كرامة ، بل يعد سحراً ، وإهانة واستدراجاً : وعلى كل حال فذلك العلم قد ألجم أفواه من يقولون بعدم الأرواح ولا يعتقدون شيئاً وراء المادة البتة . وكلما كان الشخص المنوم خاضعاً لمن يريد أن يجعله نائماً ، نام بسرعة وكان تحت تصرف الثانى . يتحرك ويتكلم بأمره فإذا كان غير خاضع له ، لم تنفذ فيه إرادة الثانى ولا ينام ، وكلما اشتد خضوعه للثانى . كان نومه سريعاً . وهذا النوم يشبه الغشية . فلو طال لأدى إلى الموت : ولقد اتخذ هذا العلم حرفة . فسلكه كثير من الأفرنج وغيرهم . ومشى فيه الرجال والنساء حتى اشتهر بين الخاصة والعامة ، وصار بعضهم يفعله بالأجرة الزهيدة . حتى اعتقد بعضهم أن كثيراً من أسرار الأولياء من هذا القبيل وهو وهم فاسد نشأ عن جهل مطبق . لأن الوجهتين متباينتان .

وفرق بين من كانت روحه بين يدى ربها مقدسة مسبحة منزهة ومن كانت روحه فى حضرة الشياطين والكفر والعصيان بعيدة عن رضاء الله ورسوله . وإذا كانوا يقولون بأن أرواح الموتى العصاة والفساق والكفار تحضر وتتكلم . فمن باب أولى أرواح الأولياء تكون حية تحضر فى أى مكان وتتكلم وتجيب عما تسأل عنه

وإذا كانت الروح الانسانية ليست جسما ولا عرضاً ولا تشغل فراغاً . فاذن تكون العوالم عندها نقطة لاتنقسم بمعنى أنها لاتجد مكاناً يحدها بل يتساوى عندها البعيد والقريب وتكون فى البعيد والقريب معاً . فاذا أرادت أن تكون فى مكان لاتذهب إليه بل بمجرد ميلها ترى ذلك المكان . وبذلك تعلم أن الروح لاتنقسم . وأن الدنيا بأسرها لاتسع نظر الروح ولكن لما هبطت من أوجها الروحانى إلى هذا العالم واشتبكت بالجسم واشتغلت بملاذه الجسمانية وشهواته البهيمية ، انطبعت فيها ميوله وشهواته . فان كل ميل يحدث فى الروح كيفية خاصة ، وهذه الكيفية روحانية من حيث الروح والكيفيات أوصاف لها والأوصاف أعيان روحانية وكلما كانت الكيفيات صوراً لهذا العالم فانها تحجب الروح عن العوالم التى هى وراء هذا العالم ويعبر عنها بالاكدار أو الظلمات أو الأقذار أو القاذورات أو الحجب الظلمانية أو البعد أو الغين أو الغان أو الرين أو الران أو البشرية أو الصدأ إلى غير ذلك من الاسماء . فاذا اجتهد

الإنسان فى تصفية روحه من كدر البشرية وصقل مرآته من صدأ الغفلة باشتغاله بما عليه الملائكة الروحانيون أعرض بقلبه وجسمه عن هذا العالم وزخارفه الباطلة وتمرن على ذلك حتى صار خلقا له يشبه الجبلة والغريزة كما قال صلى الله عليه وسلم « واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد على كبد الظمآن » فانظر كيف طلب أن يكون حبه لمولاه أشد من حب الماء البارد الذى هو غريزة فى الإنسان فإذا استمر على ذلك بحيث يمر عليه الوقت الطويل وهو لا يخطر له إلا عالم الملائكة وتسبيحهم وتقديسهم ولا يخطر له شر ولا يفعل شراً لأن ذلك بعيد عنهم وليس من عالمهم ولا من أوصافهم بل هو من عوالم الشياطين وأوصافهم وكلما استمر على ذلك تقوت روحه ولا تزال تزداد قوتها حتى تصل إلى درجة عالية . وبذلك تكون فى حكم الأرواح وتحصل المناسبة بينها وبين الملائكة فتشرق عليه من أنوارهم وأسرارهم فيكون روحانياً جسمانياً وتظهر منه الخوارق الناشئة عن التوجهات الروحانية فيرى الأشياء من المسافات البعيدة ويقرأ الكتب وهى مقفلة من وراء ظهره وهو مغمض العينين ويقطع المسافات البعيدة فى خطوة واحدة وغير ذلك من الخوارق الروحانية .

واعلم أن هذا الأمر يحصل بأحد طريقين أحدهما طريق الشرع والآخر يسمى طريق الأشراق وهو الذى ينسب إلى أرسطو الفيلسوف اليونانى والأول لا يحصل إلا بمتابعة الشرع والثانى يسلكه

كل من أراد سلوكه من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان وعباد الكواكب المشهورين بالصابئين . وكل من الطريقين مبنى على تجريد همة النفس وتوحيد وجهتها بصرفها عن الشواغل التى تقطعها عن عالم الروحانيات وهو فى كل ذلك لا يعمل بشرع ولكنه سائر فى تصفية طبيعية بشرية فإذا صفت روحه من شواغلها انغمست فى الروحانيات وبطل تعلقها بهذا العالم . ولا بد لصاحب هذه التصفية من معرفه بعض علم الطب لأنه يحتاج إلى معرفة اعتدال مزاجه حال تصفية نفسه إذ أنه متعرض على الأقل لأمراض مخية يقع فيها . فإذا جاع كثيراً ربما وقع فى مخمصة أودت بحياته وقد يجوع إلى درجة يجد فيها خيالات وأوهاماً وربما رأى شموساً ونجوماً وأن أصواتاً تناجيه أو يرى أقواماً يمرون به أو يطيرون فى الهواء وقد يكون هذا كله متسبباً عن اعتلال مزاجه وانحرافه عن جادة الاعتدال . وقد يتوهم فى هذه الحال أنه ولى من أولياء الله تعالى إذ أنه قد وصل إلى سماء العرفان وانخرقت له الحجب وصار يتلقى العلم اللدنى ويتلقف الغيب . فلا بد لمن يسلك طريق التصفية من معرفته ببعض الطب يدبر بها مزاجه ويعرف كيف يكون غذاؤه وربما أكل بعضهم الطعام الدسم بعد أن أنهك الجوع أحشاءه فيقع فى أمراض قتالة أو يعسر الخلاص والشفاء منها وقد يأكل كثيراً من الدسم فتشتد حرارته على المزاج الذى صار رقيقاً بالتصفية فربما التهب باطنه بهذه الحرارة فسببت حمى

قد تكون القاضية عليه . وربما أثر عليه الهواء البارد أو الحار ولذلك ذهب بعضهم إلى الامتناع عن أكل طعام فيه دسم حفظاً للمزاج من الفساد .

واعلم أن التصفية الشرعية ليس فيها شيء من ذلك بل هي أن تسلك الحد الأوسط بين حدى التفريط والافراط . فإذا أكل لا يشبع ولا يأكل حتى يجوع وإن جاع فجوعه متوسط . وهو فى كل ذلك يكون محباً لمولاه متيقظاً بقلبه ذاكراً شاكراً مسبحاً مهللا مكبراً فرحاً بسيده . فكلما رأى شيئاً من صنعه استغرق فى صنع ربه فيكون حاضراً بقلبه مع مولاه هائماً بذكره عند رؤية كل شيء من غير أن يمتنع عن طعام أو شراب إلا الغليظ منهما . ولا ينقل قدميه إلا فى رضاء ربه ولا يفقده سيده حيث أمره . وهذا هو طريق التصفية الشرعية الذى كان عليه بواطن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسمى طريق الشكر والمحبة . فبينما ترى أحدهم فى صناعته أو على فراشه يفتح الله عين قلبه وتفاض عليه الأسرار والبركات والفيض والنفحات .

فلما انقضى عصر الصحابة والتابعين وجاء عصر تابع التابعين وضعفت الهمم عن إدراك شأو من كان قبلهم بالشكر والمحبة والفرح بالمنعم سلكوا طريقاً فلسفياً هو طريق الاشراق لأنهم استعجلوا الفتح فوضعوا لهم أصولا وقواعد إذ قالوا إن القلب مادام مشتغلا بالأكوان وتكون صورها منعكسة فيه فلا يفتح عليه فقالوا لابد

للمرتاض أن يكون فى بيت مظلم ضيق بعيد عن الأصوات ليس فيه إلا منفذ صغير للهواء وأن لا يأكل إلا فى كل ثلاثة أيام على الأقل حتى بذلك تنسد حواسه إذ لا تسمع أذنه كلام أحد ولا يكلم أحداً ولا يبصر شيئاً ولا يتوارد على حسه أشياء متجددة من المحسوسات ولا يذوق شيئاً مدة جوعه الطويلة وإذا انسدت الحواس الظاهرة لم يصل شيء إلى الحواس الباطنة لأن الحواس الظاهرة تشبه المجارى إلى الباطنة . وبذلك تصفو روحه من الصور الكونية . فإذا اتجهت إلى عالم الأرواح اجتمعت همتها كلها بعد أن كانت متشعبة . وهذا الاجتماع يكون قوة لها تدخل بها عوالم الروحانية . وهذا الطريق وإن كان محموداً ولكنه منحط عن طريق المحبة والشكر والفرح بالمنعم . إذ الفتح فى الأول هجومى وفى الثانى بالترقب . والأول خالص لوجه الله والثانى معلول . والأول شرعى والثانى فلسفى ولذلك كان طريق المحبة والشكر والفرح بالمنعم طريق أهل المحبة .

واعلم أن غاية همم السائرين بتجرد أرواحهم إلى أغراضهم وشهواتهم أن ينتهى سيرهم إلى خرق العادة أو معرفة غائب أو كشف ضمائر الخلق أو العلم بمنافع العقاقير وأسرار النباتات أو طى الأرض والمشى على الماء والهواء أو معرفة الخبايا والدفائن وأمثال هذا .

وأما السالكون إلى ربهم فانهم تجردوا عن حظوظهم الدنيوية ولذائذهم الشهوانية وهاموا فى محبة مولاهم وأعرضوا عما سواه

فيما تجلى لهم من الأسرار والأنوار والبركات وشاهدوا ملكوت الأرض والسموات وتمكنوا من فعل خوارق العادات لم يرضوا دون مولاهم حتى قال قائلهم :

ومهما ترى كل المراتب تجتلى عليك فخل عنها فعن مثلها حلنا
وقل ليس لى فى غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى

فتتوارد عليهم الأنوار الروحانيه إما دفعة واحدة فتأخذهم عن حسهم ويكونون غرقى بحار الأسرار والأنوار فعاشوا والهين بحب محبوبهم متهتكين فى عشقهم وقد خلعوا العذار فى حبه وحنوا وأنوا اشتياقاً إلى قربه لا يسمعون إلا عنه ولا يتحركون ولا يسكنون إلا به فيهيمون به منه إليه . ويبكون منه عليه :

تشاغل كل محبوب بشغل وشغلى فى محبته وفيه

وقال بعضهم :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر وتذكارهم عند المناجاة بالسر
أديرت كؤوس للغرام عليهمو فأغفوا عن الدنيا كاغفاء ذى سكر
نفوسهمو جوالة بمعسكر به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فلا عيش إلا مع أناس قلوبهم تحن إلى التقوى وترتاح فى الذكر

وكلما نظر أحدهم إلى الدنيا نظرة ود وبخل بروحه فى هوى محبوبه نادته هواتف الحق بلسان الحال قائلة :

أيها الخاطب معنى حسننا مهرنا غال لمن يخطبنا
جسد مضنى وروح فى العنا وعيون لاتذوق الوسنا

وفؤاد ليس فيـــه غيرنا فإذا ما شئت أد الثمنـــا
واخلع النعلين إن جئت إلى ذلك الوادى ففيه قدســـنا
وعن الكونين كن منخلعاً فالفنـا يدنى إلى ذاك الفنـا

تراهم قد ذلوا لمحبوبهم وعفروا بالتراب جباههم وألصقوا بالأرض خدودهم . حتى قال بعضهم :

لايصلح للمحبة إلا قوم كنسوا بأرواحهم المزابل ورأو نفوسهم أعدى أعدائهم فاتخذوها عدوا وجاهدوا فى الله حق جهاده فانتصروا « وما النصر إلا من عند الله » كانت نفوسهم تملكهم فملكوها كانوا عبيداً لها فصارت رقاً لهم كانوا يتصرفون على هواها فجاهدوها حتى صار داؤها دواها . وجدوها غارقة فى بحار الغفلات والخطايا والسيئات راتعة فى ميادين الجهالة رافلة فى ثياب الرفاهة والضلالة إن دعاها الشيطان أجابت ولبت وإن دعاها ربها وسيدها أبت وفرت وقد غرتها زخارف الحياة الباطلة وألهتها زهرة الحياة العاطلة تهيم فى أودية اللهو وتقضى الأوقات فى الكفر والزهو تجمع من الحطام من حلال أو حرام ولا يمر عليها الوقوف بين يدى الملك العلام يثقل عليها ذكر الله وإن أمرتها بالأقبال عليه تأباه فلما فتشوا نفوسهم وعرفوا عيوبهم سعوا فى تصفيتها واجتهدوا فى تخليتها فلما طهرت من أقذارها وانحلت من عقالها وانتشلت من أوحالها تسابقوا إلى تحليتها بمحاسن صفاتها فبعد أن كانت إمارة

بالسوء أصبحت راضية مرضية ودخلت فى عباد الله المخلصين وكانت « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » وقربها حبيبها ودعاها إلى حضرة قدسه وأجلسها على كراسى العز فوق بساط الكرامة فى حضرة التدانى بين أهل المعانى وخلع عليها الحبيب خلعة القبول والتقريب فعاشت فى جواره ممتلئة بانواره منعمة بأسراره . فهذه أحوال السابقين وصفات المحبين فإن كنت منهم فقد سعدت سعادة الأبد وحظيت بالأسرار والمدد وإن لم تكن فعليك بالتشبه بهم إن التشبه بالكرام فلاح وإلا فابك على نفسك وبعدك وحرمانك على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولاسهم

واعلم أن هذا الأمر لا يكون شرعة لكل وارد بل هو اختصاص لواحد بعد واحد .

وليس جناب القدس إلا لأهله وما كل إنسان بواديه يسرح

وإن ملكتك نفسك وغلبتك وصرعتك فياطول شقاوتك وياعظم حسرتك تقضى زمانك بعيداً عن سيدك معرضاً عنه أسيراً لنفسك غريق الغفلات والشهوات مرتطما فى أوحال الجهالات مرتكساً فى جب الخطيئات منتكساً فى حضيض الغوايات محروماً من الخير والنفحات عار من لباس التقوى والبركات مطروحاً مع الشياطين منتبذا مع الخاطئين قريباً للمنافقين المداهنين محباً للعاصين والفاسقين أعاذنا الله وإياكم من الطرد عن بابه ومتعنا بالقرب إلى حضرته وجنابه وكتبنا مع أوليائه وأحبائه .

وأما من فاجأته الأنوار على التدريج فإنه يشرب كؤوس الأنوار ويحتسى شراب الأسرار فتطهر بذلك نفسه ويحفظ عليه حسه فيكون باطنه مغموراً بالأنوار الإلهية وظاهره محفوظاً بالتكاليف الشرعية فروحه فى حظيرة الحق وجسمه كسائر الخلق قد كتم سره وملك أمره وأعطى كل ذى حق حقه ووفى كل شيء قسطه لايخرج عن الشرع قيد شبر ولا يغتر بما شاهد من سر السر .

فمن داخل كن صاحياً غير غافل * ومن خارج خالط كبعض الأجانب

فانظر أصلحك الله تجد فرقاً عظيما وتبايناً بعيداً بين الطائفتين رجل تجردت همته إلى أدراك الأغراض والشهوات وآخر هائم فى حب رب البريات فالأول فى تجرده بعيد عن سيده والثانى أعرض عن كل شيء سواه فنظر إليه وتجلى عليه وأعطاه ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . الأول (غارق فى ظلمة) البعد لأنه فى تجرده لم تكن وجهته لسيده فكان عنه بعيداً وعاش طريداً فصار للشيطان مريداً إذ أنه فى حضرة الشيطان . والثانى غارق فى الشهود متمتع بالقرب فى حضرة الودود فإياك أن يخطر لك أو يمر ببالك أن هؤلاء الذين يعالجون الأرواح يشبهون من حل فى حضرة الفتاح فإن ذلك من أسباب الحرمان موجب للقطيعة عن حضرة الرحمن .

واعلم أن الإنسان ماسمى إنساناً إلا لأنسه فإن بعض أفراده

يأنسون ببعض . ولقد خلق الله الإنسان عمرانياً فالبعض يعاون البعض على مصالحه إذ لايمكن للبعض أن يقوم بمصالح الجميع فلا بد للمدينة الفاضلة من قوم للكتابة والبعض للطب وغيرهم لصنع الطعام وقوم يكونون حـــدادين وقوم يكونون نجارين وطائفة للزبالة وطائفة للبناء وهكذا فكانت الأفراد مرتبطة المصالح لايستغنى البعض عن الآخر إما بواسطة أو بوسائط وأهل المدينة الفاضلة توجد بينهم القومية الصحيحة فانهم كأهل بيت واحد قام كل منهم بمصلحة من مصالح البيت وعرف الجميع أن فشل بعضهم يلحق ضرراً بالباقين فلذلك كانوا كالجسم الواحد إذا تألم عضو تألم سائر الجسم فهم بذلك متضامنون فى جلب المنافع ودفع المضار يرحمون صغيرهم ويوقرون كبيرهم ويذعنون لمن ينصحهم ويعطفون على فقيرهم ويحثون أغنياءهم على مافيه المصلحة العامة فكانوا يداً واحدة وفاض الغنى على الفقير وتألفت قلوبهم وتراحمت فصارت قلباً واحداً وذلك لا يكون إلا بالتعليم العملى وتربية الأخلاق وتنمية الفضائل وغرس الشهامة فى أرض قابلية نفوس الأطفال فى نشأة صغرهم وإعلاء شأن من يسعى للمصلحة العامة وتقبيح أعمال من يسعى لمنفعته الشخصية حتى يكون ذلك داعية لجذب القلوب إلى فعل كل مافيه صالح عام ومنفعة للبقية فإذا نشأ على ذلك قوم فى الأمة كانوا وسطاً تسرى منه الأخلاق الفاضلة فى المدينة فيكون ذلك الوسط مدرسة يتعلم الإنسان فيها دروساً

عملية بحيث أنه لو خالف ذلك الوسط لم يستطع أن يقيم بينهم . لأنه يكون عرضة لانتقادهم ومضغة فى أفواههم ومثلة بينهم ويكون محلا للازدراء والتحقير لايقيمون له وزناً ولا يرفعون له ذكراً فإما أن يرجع إلى حكم الوسط وإما أن يقيم مرذولا محتقراً بينهم أو يرتحل عنهم وإذا لم تبتدىء المدينة الفاضلة بتهذيب العقول بالعلم حتى يعرف الإنسان مايجب له ومايجب عليه من الحقوق . ويكون ملزماً من قوة قاهرة فوقه بأن يسير على هذا المبدأ فى أقواله وأفعاله وأحواله حتى ينشأ نشأة فاضلة كانت المدينة همجية لا فاضلة وقد تنعدم هذه القوة القاهرة فلا يجد الإنسان من يضطره إلى التهذيب بالعلم والتربية العملية وتتفرق القلوب ولا يحس أحد من أهل المدينة بأنه متضامن مع البقية فى مصالحهم ويعتبر كل واحد من المدينة أجنبياً عنه فلا يهتم كل واحد منهم إلا بمنفعته الشخصية غير مبال بضرر الباقين فتفرقت قلوبهم وبخلت أغنياؤهم تكبرت فقراؤهم وظهرت الوقاحة فيهم مبتدئة من الطبقة السفلى حتى تعم سائر الطبقات فيزول ماء الحياة من وجوههم ولا يعطف غنيهم على فقيرهم ولا صحيحهم على سقيمهم ويصرفون أموالهم فى ملذاتهم غير ملتفتين لما يجب عليهم تلقاء الأرامل والأيتام لايبالون بالمنافع العامة ولا يعنون بأمر مدينتهم فى الهمجية فيكون مثلهم كمثل شجرة تفرقت أغصانها فكانت كل ورقة على حدتها وتفتت ساقها فصار قطعاً صغاراً وحمل الهواء تلك الأوراق والقطع فبددها ومزقها كل ممزق حتى لم تجتمع ورقة

مع الأخرى ولا قطعة مع الثانية فإذا عم هذا الفساد انحل مجموع المدينة فضاعت الوحدة القومية فلا يعرفون للمصلحة العامة طعما ويسعى كل منهم إلى مصلحته الشخصية ودواء ذلك إذا لم يوجد التهذيب ولا التربية العملية بالقوة القاهرة أن تقوم جماعة من رجال المدينة وينشىء كل منهم جمعية تجتنب السياسة وتنظر فى مصلحة أهل الحارة أو حارتين أو ثلاث فيجمعون أموالا من الأغنياء ويسيراً من الفقراء ويجعلون لهم صندوقا عند أمين يختارونه من بينهم ثم يسعون فى معرفة الأرامل والأيتـــام الذين فى دائرتهم فيعينونهم بالمال ويفتحون المدارس للبنين والبنات لتعليم القراءة والكتابة وشىء من مبادىء العلوم ويجتهدون فى تعليمهم الأشغال اليدوية التى تعود عليهم بالربح والمنفعة ولا يقتصرون على تعليم القراءة والكتابة وصناعة التطريز بل يعلمونهم غالب الصنائع التى تحتاجها المدينة وبذلك لا يجد الفقير سبيلا إلى أهل دائرتهم إذ تكون الصبيان والبنات قد تعلموا صناعات تقوم بحاجتهم إذا لم يجدوا من ينفق عليهم بل لو وجد من ينفق عليهم فانهم يقومون بمساعدته فتتسع أرزاقهم ويعيشون فى رغد العيش ولا يحتاج يتيم أو أرملة ثم يساعدون العاجز عن الكسب من الرجال والنساء بشىء يرتبونه لهم ويسعون فى الصلح بين المتخاصمين ويساعدون المظلوم بإرشاده إلى ما يجب عليه من التظلم ويساعدونه حتى ينتشل من الوهدة التى وقع فيها وينصحون الظالم بالرجوع عن ظلمه وينظرون

فى أمر المرضى وإسعافهم ويقنعون المسرفين بما يجب عليهم من الاقتصاد فى معيشتهم فلا يقيمون الأفراح ولا غيرها بالمال الكثير الذى يجب إنفاقه فى مصلحة خاصة أو عامة ولو سار أهل المدينة بحزم وفكر وروية وصرفوا أموالهم فى المصالح النافعة واجتنبوا البذخ والإسراف فى بعض الوجوه لتوفرت لهم الثروة الطائلة ولم يوجد بينهم فقير فإننا إذا فرضنا أن أهل المدينة يبلغون مليوناً من النفوس فإنه يكون من بينهم ستمائة ألف من الإناث وأربعمائة ألف من الذكور . وإذا فرضنا أن الذكور فيهم النصف صبيان كان الباقى مائتى ألف . فإذا أسقطنا منهم خمسين ألفاً شيوخاً كان الباقى مائة وخمسين ألفاً لكل واحد منهم ستة أشخاص من صبيان وشيوخ ونساء فالعائلة تكون مركبة من سبعة أشخاص وإذا فرضنا أن كل عائلة تصرف فى السنة جنيهاً واحداً للقرافة وجنيهاً للأفراح وجنيهاً فى الموالد وجنيهاً فى المآتم وجنيهاً فى العيد ثمن لحم وجنيهاً للثياب الجديدة فالمجموع لكل عائلة ستة جنيهات وعلى ذلك يتوفر مايقرب من المليون من الجنيهات وهذا على أقل تقدير فلو وجدنا فى المدينة عشرين ألفاً من الأرامل والأيتام والعاجزين عن الكسب لكان لكل واحد خمسة جنيهات فى السنة ولو استثمرنا هذا المال لفاض عن المصالح وكان ثروة لأهل دائرته فإذا علمناهم الصنائع كان الربح عظيما والثروة طائلة وارتقت المدينة فى المدنية وظهرت فيها الأخلاق الفاضلة والمروءة والشرف وإذن لاعذر

لأهل المدينة وليس لهم أن يحتجوا بأنه قد فات الوقت وليس فى الإمكان إيجاد طريق لإصلاح المدينة وهذا الأمر سهل جداً على رجال المدينة العاملين إذ ليس فيه شىء من المشقة عليهم لا سيما إذا كانوا أمناء صادقين مجتنبين السياسة لايتعرضون لها بالكلية بل يسعون فى مصلحتهم ورفع شأن مدينتهم ونبذ التعصب الذى يقسم المدينة على بعضها فإنها إذا انقسم أهلها قام كل فريق بإفساد ما أصلحه الآخر ففشلوا كلهم وضاعت المصلحة العامة بين أحزابهم بل يجب أن يكونوا يداً واحـــدة كأهل بيت واحد فإن أهل البيت إذا اختلفوا وصاروا أحزاباً ربما هـــدم بعضهم حائطاً من البيت تشفياً من الآخر وعناداً وحقداً على أنه بذلك أوقع الضرر بنفسه وهو لا يدرى وإن عرف أن فى ذلك ضرراً يلحقه فإنه لايبالى به لغلبة العداوة وما انقسمت مدينة على نفسها إلا انحط شـــأنها وهبطت إلى حضيض الفقر والذل وهذا الأمر يحس به كل عاقل ولا ينكره إلا من اختلت حواسه واعتل مزاجه واختلط عقله .

واعلم أن الإنسان باعتبار كماله إما أن يكون إنساناً كاملا أو نصف إنسان أو ربع إنسان بحسب نصيبه من كماله وليس الإنسان إنساناً بصورته فإن الصـــورة يشترك فيها الإنسان والحيوان ولقد قيل :

ما المرء إلا قلبـــه ولسانه وسواهما الحيوان فيه شريك

وقال صلى الله عليه وسلم (المرء بأصغريه قلبه ولسانه) فمن لم

يكن له كمال فقد انحط عن مرتبة الإنسان إلى صف العجماوات بل قد يكون شراً منها لأن فساده يكون أشد وأعظم فمن أقبل على نفسه فاستكمل فضائلها وقوم ما اعوج منها والتزم مكارم الأخلاق وكان على ما ينبغى للانسان من الكمال فهو إنسان كامل وإذا انحط عن ذلك كان بحسبه إما نصف إنسان أو ثلثه أو ربعه .

واعلم أن الكمال إما أن يكون مدنياً ظاهراً وإما أن يكون دينياً باطنياً . ولقد مر بك شيء من الكمال الظاهرى . وأما الكمال الباطنى الدينى فهو أن تجتهد فى تصفية نفسك من الرذائل والمذام حتى تصبح روحك صافية مشرقة ليس فيها كدر فمن فعل ذلك على ما ينبغى كان إنساناً كاملا وإلا فهو بحسب انحطاطه عن ذروة الكمال ، ثم إن الكمال الباطنى إما أن يكون كمالا دينياً دنيوياً وهو أن لا يكون فى روحك غش لأحد بسعيك فى ضرره بأن تسوق الشر إليه أو تمنع الخير عنه ولا غش لنفسك فإنها أولى بالمعروف من غيرها . وهذا وإن كان من الدين ولكنه من قسم المعاملات فهو دينى دنيوى . وهناك كمال دينى أخروى وهو أن تكون وجهتك فى صفائك نوال ثواب الآخرة فى جنة النعيم والنجاة من عذاب النار وهذا أرفع من القسم الذى مر قبل هذا . وأما القسم الأرفع من كل قسم فهو أن يكون صفاؤك وتجرد همتك وتوحيد وجهتك فى الله تعالى والقرب منه والهيام فى محبته وذكره لا يقصد بذلك نعيم الجنة ولا النجاة من النار . فمن فعل ذلك على ما ينبغى

فهو الإنسان الكامل الذى يجعله الله رحمة فى الأرض بين عباده ويكون مهبطاً للأسرار ومركزاً للتجليات ومظهراً للنفحات والبركات والخيرات . فإذا اشتد استغراقه فى محبة الله حتى نسى ما سواه باستيلاء المحبة والذكر على قلبه ولسانه وظاهره وباطنه غرق فى الأنوار والأسرار ولم يعد يعقل نفسه وحجب عن غير مولاه . فهذا هو الولى حقاً وصدقاً يغار الله له ويحارب من آذاه وحينئذ يشهد الأسرار الإلهية وتفاض عليه العلوم اللدنية فإذا نطق فإن الله ينطقه وهكذا إذا قام أو قعد أو تحرك أو سكن وقد يشهد سر أفعال الحق السارية فى الكون فإذا اتسع قلبه وروحه وجد روحه لا يبعد عنها شيء من الكون فأبصره كله وتسرى روحانيته فى أعلاه وأسفله وظاهره وباطنه ولا تترك شيئاً من الكون إلا سرت فيه بحكم صفائها واتساع نظرها فتجد الأمر الإلهى نازلا على الكون الذى تلاشى فى نظرها وربما تلقت ذلك السر قبل وصوله إلى تفصيله فى الكون فيفيض تفصيل الأمر منها فى الكون فكانت مركزاً للكون يتنزل عليه الأمر الإلهى بأفعال الحق وذلك لا يكون إلا لرجل واحد من الأحياء وصلت روحه فى الصفاء إلى درجة لم تلحقها فيه روح أخرى وهذا هو المسمى بالإنسان الكامل فى عرف أهل الله ولقد سخر قوم من ذلك وعدوه خرافة لا أصل لها وهو ناشيء عن حرمان وظلمة استحكمت فى قلوبهم فأفقدهم الله نور الإيمان فأنكروا هذا الأمر ومن أسعده الله

صدق به وإن لم يصل إليه ولقد قال بعض الأستاذين . إذا عرفت فاتبع وإذا جهلت فسلم فإن الإعتقاد ولاية والإنتقاد جناية . وياليتهم اعترضوا بعلم وهدى ولكنهم اعترضوا بجهل ،

واعلم أن قوله تعالى « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ » . يدل على أن الإنسان مخلوق وإذا كان مخلوقاً فإن خالقه هو الله تعالى ومن أسمائه تعالى الخالق وهو إسم قديم فالحق تعالى مسمى به أزلا وأبداً فلا يزال ربنا خلاقاً أزلا وأبداً فلا يكون تعالى غير خلاقاً أزلا وأبداً .

وقال بعضهم « إذا توجهت قدرة الحق إلى إيجاد شيء فى الأزل فإما أن يوجد ذلك الشيء فى الأزل وهو يؤدى إلى أن العالم أزلى فيكون قديماً والقديم لا يقبل تأثيراً وإلا كان متغيراً وهو حدوث فيكون خلفاً وتناقضاً وأما أن لا يوجد بعد أن توجهت قدرة الحق إليه بالإيجاد فيكون عجزاً والحق منزه عنه فإن قيل إن قدرة الحق توجهت عليه بأن يوجد فى زمن كذا فهل بين توجه القدرة وإيجاده كان ذلك الشيء قد وجد أو لم يوجد » فالسؤال باق

وقد أجاب بعضهم بأن الخلق من جهة تعلق العلم الإلهى بهم قديماء لأنه لايقال إن العلم فى الأزل لم يكن كاشفاً لهم فإن ذلك جهل يتنزه الحق عنه وعلى هذا القول يكون الخلق فى ذاته حادثاً وإنما كان قدمه بتعلق علم الله به ولله يكشفه وهو جل شأنه فى تنزيهه لا يدخل مع الحوادث كونهم مع أنه معهم بذاته وصفاته

معية لا كمعية الخلق تتنزه عن الحصر والأزمنة والقبلية والبعدية وهو سبحانه فى حال كشفه لهم وهو فى تنزيهه يرى الخلق بعلمه وبصره صفة إلهية منزهة عن الزمان وهو تعالى قد خلق الخلق فى أزمنة وأمكنة وهو يراهم كما هم عليه فى عدمهم ، وفى وجودهم ، وفى أزمانهم وأمكنتهم مع تنزهه تعالى عن الزمان والمكان - والخلق دائماً لا يكونون إلا فى دائرة الإمكان والحق تعالى دائماً فى دائرة تنزيهه فلا يقال أبداً أن الحق يدخل مع الخلق فى دائرة الإمكان بل الخلق يتقلبون فى دائرة إمكانهم ، والحق تعالى يعلمهم ويراهم من غير أن يدخل معهم فى دائرة إمكانهم فهو سبحانه وتعالى معنا من غير أن يدخل معنا فى دائرة إمكاننا ، وعلم من ذلك أن صفات الحق كلها منزهة عن صفات الخلق « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

واعلم أن الله تعالى قد خلق الإنسان وأمره بعبادته والأقبال عليه ليفوز بالسعادة الأبدية ونهاه عن طاعة النفس والشيطان فإذا فعل العبد ما أمره به ربه واجتنب ما نهاه كان عبداً لله حقاً قد تحرر من رق الأغيار ، ولم يكن للنفس ولا شيطان عليه سبيل لا ينظر إلى زخارف الدنيا ولا يركن إليها . ويقنع منها بالقليل ولا يكون همه إلا رضى ربه فيكون إنساناً كاملا حقاً ولو نظر إليه أهل الدنيا نظر التحقير ونبذوه وامتهنوه فإنه لا يزداد إلا إقبالا على ربه ولو جاءته الدنيا من غير طلب لهرب منها وعلم أنها فتنة

وأن النظر إليها قطيعة والأدبار عنها وصلة وإياك أن تظن أنى أقصد بترك الدنيا أن أهلها ينقطعون عن أعمالهم ويتركون أسبابهم ويهيمون فى الكهوف والمغائر ولكنى أقصد أن الإنسان يعرف ربه ويوجه قلبه إليه ويشهد الفعل منه خلقاً وإيجاداً ثم يسعى فى حوائجه ولا يقصر فيها فتكون الأسباب عنده كأبواب لله يقف عليها يلتمس من ربه العطاء فإذا قصد إنساناً فى حاجة فإنه يقصد عند وقوفه بين يدى ذلك الشخص أنه واقف على باب من أبواب ربه ويعلق قلبه بالله ، ويعلم أن ذلك الشخص بيد الله يقلبه كيف يشاء فلا يصدر عنه فعل إلا والحق تعالى خالق لذلك الفعل فإذا خرج للقاصد مخرج الرضا كان لله شاكراً ، وإن خرج له مخرج السخط فليكن على قضاء الله صابراً ولا يرى لذلك الشخص أثراً أثراً ولا فعلا ولا يحقد عليه ، فإن أعطى شهد الله معطياً ، وإن منع شهد الله مانعاً . بيده مقاليد الأمور ، جل شأنه وتقدست أسماؤه ، وهذه حالة شريفة لايذوقها إلا من قام بالعبودية بين يدى مولاه ولا تحصل إلا بدوام الإلتجاء إلى الله والوقوف ببابه ويستحضر فى كل أحيانه أن الله هو الفعال وأنه المنفرد بالتدبير والإيجاد ولا يقف مع ظاهر الأمر ويحجب به عن مولاه فلا يصدر فعل من أحد إلا شهده صادراً عن ذلك العبد ولا يدرى أن الله هو الخالق المدبر وإن أظهر الفعل على يد ذلك العبد .

واعلم أن الإنسان إذا أطاع ربه نور الله قلبه بنور الإيمان وأودع

فيه حقيقة الإيقان وطرد عنه الشيطان فرحل بظلمته من ذلك القلب وذهبت وساوسه فإذا أراد أن يزين له شهوة أو شكاً أو شبهة خرج شعاع من ذلك القلب المستنير بنور ربه فأحرقت وساوس الشيطان ونزغاته فكان القلب كسماء حرست من الشياطين بالشهب التى تخطف كل شيطان يريد أن يسترق السمع ، وإذا كان القلب مستنيراً ولا يقدر الشيطان أن يصل إليه حلت فيه أنوار الملكوت وتواردت عليه ملائكة الرحمة ونزلت عليه السكينة وحفت به غواشى أنوار التجليات وأشرقت عليه الأسرار والبركات والرحمات وغرق فى أنوار السبحات فلا يخطر له خاطر إلا إذا كان وارداً من الملكوت ، وهو خاطر حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن كان هذا حاله فإنه يشهد الأفعال بعين بصر الإيقان ، ولا يحتجب عنها بوساوس الشيطان فإن صادفه مايحبه شكر ، وإن صادفه مايكرهه صبر . وإياك أن تصغى إلى حديث الشيطان فيقول لك إن هذا لا يكون إلا للأولياء ولا يحصل إلا للأفراد ، وقليل ماهم . وأن جميع الخلق لا يتيسر لهم العمل بذلك فإنك إذا أصغيت إليه انقطعت عن ربك وحجبت عن شهود الفعل منه وشاهدته صادراً من العبيد مع أن الإقبال على الله بالقلب ليس فيه كلفة ولا كبير مشقة ، فارفع همتك إلى ربك واشهد الفعل منه وتأدب معه واعكف على بابه ثم انصرف إلى الأسباب كما أنت عليه ظاهراً فمتى أراد الشيطان منك أن تنصرف عن ربك فقد أراد

أن تكون مع الخلق بظاهرك وباطنك وحينئذ تنقطع عن ربك بظاهرك وباطنك فتكون معرضاً عن ربك بالكلية مع أن الكمال أن تكون مع الخلق ظاهراً ومع الله باطناً وهذا لا يؤثر على شيء من أحوالك ولا أعمالك والله يتولانا ويتولاك بهداه ويوفقنا إلى أقوم طريق إنه سميع مجيب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

انتهت رسالة الإنسانيـــة

ورضى الله عن إمامنا سيدى سلامه الراضى ، وعن خليفته سيدى إبراهيم سلامة الراضى رضى الله عنهما ، وقد أذن سيادته بإعادة طبع هذه الرسالة ليعم نفعها على الجميع .

الطبعة الأولى سنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

الطبعة الثانيـة سنة ١٣٨٩ هـ — ١٩٧٠ م

CamScanner